الفصل الثالث

ديفيد هيوم

- تمهيد
- حياته وأعماله
- تحليل المعرفة
- الاعتقاد الدينى

oberikan.com

obeikan.com

تمهـيد

الحق أن مذهب "هيوم" وحدة متسقة تنم عن نظرة واعية متعمقة للطبيعة البشرية، ويصقل هذه النظرة منهج متسق، حاول فيه الفيلسوف أن يبنى علماً جديداً واضح المعالم سليم البنيان، هو علم الطبيعة البشرية، ولتحقيق هذا الهدف، كان لابد أن ينقد أصول الطبيعة البشرية نقداً تحليلياً يبين فيه انطباعات تجاربنا.

استهل "هيوم" فلسفته بالدعوة إلى المنهج العلمى، وهو المنهج الذى يلزم باتخاذ الملاحظة والتجربة أساساً له. ولكننا نراه يقر – بوضوح – بأن الخيال قوة مبدعة يدعوها "هيوم" بـ "تلقائية الذهن". وإلى هذه التلقائية الفضل فى ربط أمور الواقع بروابط وثيقة تحقق للمعرفة أصولاً راسخة يستند إليها علمنا بالواقع، وتمكن للعاطفة من أن تؤدى دورها الإنسانى فى الربط بين المشاعر، التى لا مفر لنا من إقرار حقيقتها، وبين الأهداف الاجتماعية التى تتطلب إيثار الغير على النفس. ومن ذلك نرى التعاطف فى مجال العمل يؤدى نفس الدور الذى يؤديه الاعتقاد فى مجال النظر [1].

هذه هى الفكرة الأصلية التى نفذ منها "هيوم" إلى مجال الأخلاق والتى تربط برباط وثيق بين جانبى النظر والعمل فى فلسفته وتجعلهما ينبثقان من معين واحد لا ينضب وهو معين العواطف والمشاعر والأحاسيس .

ولكن لم يقتصر "هيوم" على الاهتمام بالإحساسات والانطباعات والأفكار على النحو الذى عرضها فى كتابه "رسالة فى الطبيعة البشرية" وإنما دعا إلى أتباع منهجاً يرد كل فكرة إلى الانطباع الذى استمدت منه. وقد استعاض عن العقل الخالص الذى يتشبث به العقليون بملكة ابتكارية، وابتكارها – كما يرى – ليس خلقاً وإنما تشكيلاً لمادة مستمدة أصلاً من الإحساس. هذه الملكة هى التى تمكن

للاعتقاد من ترسيخ العلاقات وتثبيتها من ناحية، وتمكن للعاطفة من إرساء العلاقات البشرية على أركان وثيقة ودعامات متينة .

لقد شق "هيوم" طريقاً جديداً فى مجال الفلسفة أيقظ عملاق الفلسفة الحديثة "كانط" من سباته فهو القائل عن "هيوم" :-

« إننى لأعترف صادقاً أن ما استذكرته من تعليم « ديفيد هيوم » كان هو على وجه التحديد العامل الذى أحدث ـ منذ أعوام كثيرة ـ أول هزة أيقظتنى من سبات جمودى الاعتقادى، ووجه أبحاثى فى مجال الفلسفة التأملية وجهة جديدة » .

* * * *

obeikan.com

حياتـه وأعمـالـه

ينتمـى "هيـوم" إلى أسـرة بورجوازيـة اسـكتلندية، ولـد فـى "أدنـبرة" فـى 26 أبريل عام 1711، وكان هو ثالث إخوته، مات أبوه وهو لم يزل بعد رضيعاً، فألقى على الأم عـبء تربيـة أبنائهـا، مـستمدة أسـباب الـرزق مـن ضـيعة صـغيرة كانـت لزوجها فى الريف. ولسنا ندرى كيف تلقى "هيوم" تعليمه، ولا أين، فكل ما يرويه فى هذا الصدد فى كتابه "حياتى" هو هذه العبارة الموجزة :

« **لقد اجتزت بالتوفيق شوط التعليم المعتاد** »[2].

وهذه العبـارة لا تـدلنا على شـىء، ولكـن كـل مـا نعلمـه أن "هيـوم" منـذ شـبابه كان باحثاً عن المعرفة، فهو يذكر فى خطاب له عام 1751، أنه كتب وهو فى سن العشرين مقالة كبيرة تضم تأملات وخواطر فى مسائل فلسفية ودينية واجتماعية. وفـى نـسخة خطيـة مـن خطـاب كـان يريـد إرسـاله إلى طبيـب مـشهور وهـو "جـورج شين" George Cheyne مـا يـدل على أن "هيـوم" كـان مـدركاً التـدهور الـذى آلـت إليه العلوم الاجتماعية نتيجة استنادها إلى فروض خاوية وصيغ فارغة. وهو يشير – فى خطابه هذا – إلى ضرورة السعى لبنـاء هذه العلوم من جديد على أساس دراسة علمية للطبيعة البشرية [3].

كانـت أسـرة "هيـوم" تهيئـه ليسلك سلك المحاماة، إلا أنه كان غير راغـب فيهـا، فأرسل إلى "بريستول" ليدرس أصول التجارة فلم يمكث بها مدة طويلة، ثم سـافر إلى فرنسا عام 1734، وبعد أن أقـام فترة قـصيرة فـى بـاريس عكـف على كتابـة إنتاجـه الأول "رسـالة فـى الطبيعـة البـشرية" وبعودتـه إلى لنـدن عـام 1737 نـشر الكتـاب، ولكـن لم يـصادف مـن الـرواج والنجـاح مـا كـان متوقعـه، ظهـر الجـزءان الأول والثـانى عـام 1739، ومـع أن ظهورهمـا قـد أثـار انتبـاه النقـاد الإنجليـز، بـل واهتمـام النقـاد الأوروبيين أيضاً، إلا أن "هيوم" لم يكن راضياً عن مصير كتابه يقول فى ذلك:

« لقد عاودنى الندم مئات المرات على تسرعى بالنشر ».

وحين أتم "هيوم" الجزء الثالث من هذا الكتاب وهو الخاص بـ "الأخلاق" ساعده معاصره الفيلسوف الأخلاقى "فرنسيس هتشون" فى العثور على ناشر ثم شرع يكتب مقالات فى الأخلاق والسياسة، وقد جمعت هذه المقالات فى كتاب عام 1742 ولاقت رواجاً بين الجمهور حتى أنه قد أعيد طبعها فى السنة التالية [4].

كان "هيوم" فى الرسالة طموحاً مسرفاً فى طموحه، إذ أراد أن يطبق مبدأه الجديد على شتى نواحى الطبيعة البشرية من عقل وعاطفة وسلوك؛ لكنه أراد أن يخرج كل موضوع من هذه الموضوعات الثلاثة (وهى التى تكون على التوالى أجزاء الرسالة الثلاثة) فى بحث خاص مستقل. وبدأ تنفيذ مشروعه الجديد بـ "البحث فى العقل البشرى" الذى كانت مادته – فى أساسها – هى نفسها مادة الجزء الأول من "الرسالة فى الطبيعة البشرية" ومع ذلك فقد ورد فى "البحث فى العقل البشرى" موضوعان لم يكونا فى "الرسالة" وهما موضوع "المعجزات" وموضوع "النتائج العملية للدين الطبيعى". وقد أثارت آراؤه فى "المعجزات" ضجة شديدة، وأخذت شهرته فى الذيوع وتحرك له النقاد.

وقد ألحق بكتابه "مقال فى مبادئ الأخلاق" موضوعاً أطلق عليه اسم "محاورة" جعل الفكرة الرئيسية فيها تشابه "الطبيعة البشرية"، رغم ما بين الناس من اختلاف فى الرأى والأخلاق والسلوك. ثم نشر بعد ذلك عام 1752 "مناقشات سياسية" فكان لها أكبر الأثر فى ذيوع اسمه واتساع شهرته، وعن هذا الكتاب يحدثنا "هيوم" فيقول:

« من بين المؤلفات جميعاً يأتى كتاب مناقشات سياسية هو الكتاب الوحيد الذى صادف النجاح فور صدوره ».

إذ استقبله القراء خير استقبال فى إنجلترا وخارجها على السواء، ولعل العامل الأول فى نجاح هذا الكتاب هو خلوه من الآراء الميتافيزيقية المجردة [5].

وفى ذلك العام نفسه من حياته، أخذت مسألة "الدين" تشغله، فأثبت آراءه

فى "محاورات فى الدين الطبيعى" لكنه تردد فى نشرها، وزاد إحجاماً عن النشر حين نصحه أصدقاؤه بألا ينشر تلك الآراء فى الناس؛ ومما يدل على حرصه الشديد على أن تأتى هذه "المحاورات" ناضجة محكمة الرأى، لبث عدة أعوام يراجعها حيناً بعد حين، ومع ذلك كله فقد حبسها عن النشر، فلم تصدر إلا بعد موته عام 1776 .

* * * *

obeikan.com

تحليل المعرفة

ذهب "هيوم" إلى أن العناصر التى تتألف منها معرفتنا كلها هى "الإدراكات" التى تتلقاها عقولنا وننفعل بها. فقسم "الإدراكات" إلى قسمين :- "الإنطباعات" Impressions و"الأفكار" Ideas. وكلاهما فى نظره من نوع واحد، وكل الفرق بينهما هو فى درجة القوة التى تؤثر بها كل منهما فى العقل. فالانطباعات أقوى فى العقل أثراً وأوضح ظهوراً، أما الأفكار فهى الصور الباهتة لهذه الانطباعات. ولا يمكن أن تنشأ فى العقول أفكار إلا إذا سبقتها انطباعات. إذن، فالانطباعات هى المرجع الوحيد الذى نقيس به صحة الأفكار وحقيقتها. ويقول هيوم:

« كل الإدراكات الحسية للعقل الإنسانى تنحل بذاتها إلى نوعين يتميز إحداهما عن الآخر وسوف أطلق عليهما اسم « الانطباعات» و« الأفكار » ... ويندرج تحت الانطباعات كل احساساتنا وعواطفنا وانفعالاتنا كما تظهر لأول وهلة فى النفس. أما الأفكار فأعنى بها ما يكونه التفكير والعقل من صور لتلك الاحساسات والعواطف والانفعالات » [6].

ويميز "هيوم" بين نوعين من "الإدراكات": الإدراكات البسيطة والإدراكات المركبة. فالبسيطة هى التى لا تقبل القسمة أو الانفصال. أما المركبة فهى التى تنقسم إلى أجزاء، فمثلاً: إدراكنا "التفاحة" يشمل مجموعة من الصفات الخاصة بلونها وملمسها ورائحتها وهذه الصفات لا تختلط ونستطيع دائماً أن نميز الواحدة من الأخرى. لذلك فكل إدراكاتنا لها وجهان: بوصفها انطباعات حسية وبوصفها أفكاراً. على سبيل المثال :

عندما أغمض عينى وأفكر فى حجرة، فإن أفكارى عنها تكون تمثلات للإدراكات الحسية التى كنت أحس بها. وإذا استعرضت إدراكاتى الأخرى فإننى

أجد دائماً نفس التشابه ونفس التمثل. إذن فهناك توافق بين الأفكار والانطباعات الحسية [7].

والحق أن الأمر يختلف بالنسبة للإدراكات المركبة، فالأفكار المركبة لا تطابقها انطباعات حسية. وفى هذا الصدد يقول "هيوم" :

« من الممكن أن أتصور مدينة قدس جديدة New Jerusalem جدرانها من ذهب وأحجارها من ياقوت. علماً بأننى لم أر شيئاً مثل ذلك. ولكن إذا كنت رأيت « باريس » فهل من الممكن أن تكون عندى فكرة عن هذه المدينة تمثلها بكل شوارعها وبيوتها بنفس شكلها وحجمها » [8].

ومن الإدراكات المركبة ما يؤكد ارتباط الأفكار بالانطباعات الحسية ومنها ما ينفيه. والأمر يبدو أكثر وضوحاً بالنسبة للإدراكات البسيطة. حيث يرى "هيوم" أن كل فكرة بسيطة يجب أن يسبقها انطباع حسى، بينما العكس ليس صحيحاً. وبالتالى فإننا نستطيع أن نقول إن الانطباعات الحسية هى علة الأفكار، بينما الأفكار لا يمكن أن تكون سبباً للانطباعات الحسية. ولكن هناك تجربة أخرى يشير إليها "هيوم" بقوله:

« فلنفرض أن هناك شخصاً قد عرف مجموعة الألوان بدرجاتها المختلفة، باستثناء درجة خاصة من « اللون الأزرق » لم تتح له فرصة رؤيتها. فماذا يحدث عندما يصادفها. هل يستطيع بخياله وحده أن يكون لنفسه فكرة خاصة عن هذه الدرجة من اللون الأزرق ؟ يعتقد البعض أنه لا يستطيع ذلك. ومن ثم فإن الأفكار البسيطة لا تشتق دائماً من الانطباعات الحسية المطابقة. وبجانب هذا الاستثناء الذى يمكن أن يحدث لقاعدة سبق الانطباع الحسى على الفكرة، فإننا يجب أن نضع حدوداً أخرى لهذه القاعدة وهى أن الإنسان يمكن أن يكون أفكاراً ثانوية من الأفكار الأولى. ومعنى هذا أن أفكارنا البسيطة تنتج عن الانطباعات الحسية على نحو مباشر أو غير مباشر » [9].

هذا هو – فى نظر "هيوم" – المبدأ الأول والأساسى الذى تقوم عليه الطبيعة

البشرية، وهذا المبدأ ينفى ما كان يتردد بين المفكرين من وجود أفكار فطرية فى العقل، ويؤكد أن كل الأفكار تأتى إلينا عن طريق الإحساس والتفكير.

لكن من الأفكار الهامة التى تميزت بها فلسفة "هيوم" هى القول "بتداعى المعانى أو ترابطها" إذ إن الخيال بإمكانه أن يفصل الأفكار البسيطة بعضها عن بعض ثم يعيد ربطها من جديد. هذا الترابط ينشأ عن علاقات التشابه والتجاور الزمانى والمكانى والسببية. فيرى أن التفكير الواعى المنظم هو الذى يرتب أفكارنا ترتيباً يجعل الفكرة اللاحقة ذات ارتباط بالفكرة السابقة.

ومن البديهى أن الخيال حين ينتقل من فكرة إلى أخرى تشابهها فإنه ينتقل أيضاً فى أجزاء المكان والزمان لكى يتصور الأشياء طبقاً لقانون التجاور. وعندما تنشأ العلاقات بين الأشياء، فإن ذلك يحدث حينما يكون موضوع ما سبباً فى أفعال وحركات موضوع آخر أو يكون علة لوجوده.

يقول "هيوم"

« إن للتداعى (أو الترابط) بين الأفكار أسساً ثلاثة: التشابه والتجاور الزمانى أو المكانى ورابطة العلة بالمعلول أو السببية » [10].

والتشابه هو أساس كل العلوم التى ترتكز على البداهة أو على البرهان. أما العلاقة الزمانية والمكانية، فتقوم على أساسها علوم الطبيعة. وعلى السببية يعتمد كل ما له علاقة بالحوادث التى تقع فى تجارب الحياة وهذه السببية هى أوسع الروابط الثلاث انتشاراً وأشدها اتصالاً بالحياة العادية. تلك هى المبادئ الثلاثة التى تترابط الأفكار على أساسها.

* * * *

الاعتقاد الدينى عند هيوم (*)

أراد "هيوم" أن تمتد النظرة الطبيعية الآلية إلى الإنسان، بحيث يفسر سلوكه تفسيراً علمياً سببياً. ومن هذه الزاوية احتل الاعتقاد الدينى مكانة رئيسية فى فلسفته، على اعتبار أن الدين من الأركان الهامة فى حياة الإنسان؛ ويجب تفسيره بما يتناسب مع النظرة العلمية، بحيث نعرف أصل العقيدة الدينية وطبيعتها ونشأتها والأسباب التى أدت إلى ظهورها. ولهذا نراه يتناول مسألة "الدين" فى كتابين رئيسيين هما :

* التاريخ الطبيعى للدين The Natural History of Religion .

* محاورات فى الدين الطبيعى The Dialogues Concerning Natural Religion .

وقد حاول "هيوم" تفسير الدين، من منظور المذهب الطبيعى (**)، وأن يتلمس فى الطبيعة أساساً لتبرير ظاهرة الاعتقاد الدينى (خاصة الاعتقاد بوجود إله). والمقصود بالطبيعة هنا "الطبيعة الإنسانية"، وهى لا تعنى عند "هيوم" الغرائز، فليس الاعتقاد الدينى – بهذا المعنى – غريزة من الغرائز الأولية، بدليل أن الغرائز متشابهة دائماً عند الناس جميعاً، فى حين أن الاعتقاد الدينى يتغير مضمونه من فريق إلى

(*) إن البحث فى طبيعة الاعتقاد الدينى عند "هيوم" ليس أمراً يسيراً، ويرجع ذلك إلى صعوبة العثور على مذهب موحد فى كتاباته عن الدين، كما يرجع – من ناحية أخرى – إلى أن "هيوم" كان يميل إلى أسلوب المحاورة فى التعبير عن الآراء الدينية؛ والتى تدور بين أشخاص عدة. وقد أدى ذلك إلى ظهور خلافات كثيرة بين الباحثين والمهتمين بفلسفته حول تحديد الشخصية التى تعبر عن رأيه .

(**) لمزيد من التفصيل فى موضوع "الدين الطبيعى" انظر كتابنا "فلسفة الدين" دار قباء للطباعة والنشر، والتوزيع، 2004، ص ص136 – 140.

فريق ومن عصر إلى عصر؛ بل هو فرع من الغرائز. بمعنى أنه ينشأ عنها (إن لم يكن واحداً منها) فهو إذن ثانوى وليس أولياً فى حياة الإنسان وفطرته، شأنه فى ذلك شأن مجموعة من الفضائل الخلقية والسياسية (كالعدالة أو الوفاء أو الولاء) فهذه كلها فضائل متفرعة من أصل فى الطبيعة الإنسانية، وليست فى ذاتها أصلاً. وإنما الأصل يكمن فى سلوك الإنسان – أى العواطف والانفعالات الأولية [11].

ويطبق "هيوم" النتائج التى انتهى إليها فى تحليله للعواطف (*) على الاعتقاد الدينى. فالعواطف الأولية يكون كل منه طرفان: سبب وهدف، فالشىء الذى تبدأ منه العاطفة سيرها يكون سببها والنهاية التى تنتهى إليها تكون هدفها. كذلك الأمر بالنسبة للاعتقاد الدينى، فأصله هو السبب الذى يستثيره؛ ونهايته هى قوة غير مرئية عاقلة [12].

ويرى "هيوم" أن هناك إجماع بين الناس على وجود هذه القوة غير المرئية العاقلة، لكنهم يختلفون فى طبيعتها وخصائصها باختلاف ثقافتهم ودرجة علمهم. وهنا يأتى دور العقل الذى يحدد خصائص تلك القوة، أما وجودها فلا شأن للعقل به، أى أن العقل يثبت للقوة العاقلة هذه الصفة أو تلك دون أن يمس وجودها [13].

ومن هذا المنطلق يدور النقاش فى كتابه "محاورات فى الدين الطبيعى" حيث يلجأ "هيوم" إلى أسلوب المحاورة – فى هذا الكتاب – لرغبته فى عرض الآراء المختلفة حول صفات الله. ويدور الحوار بين ثلاثة أشخاص هم :

* **ديميا Demea** وهو اسم مأخوذ من التراث المسيحى، ولهذا كان يعبر عن موقف رجل اللاهوت فى تعصبه وجموده .

* **كليانتس Cleanthes** وهو – فى الأعم الأغلب – الشخصية التى عبر "هيوم" من خلالها عن آرائه الخاصة، أى تلك التى تعبر عن قدرة العقل على الوصول إلى الحقيقة .

(*) يستخدم "هيوم" كلمة "العواطف" لتشمل كل أنواع الغرائز والدوافع النفسية والميول والرغبات والانفعالات .

* **فيلو Philo** وهو اسم لأحد فلاسفة الأكاديمية، ويمثل موقف المتشكك الذى لا يريد أن يؤمن لا بالدين ولا بالعقل [14].

والموضوع الأساسى الذى يدور حوله النقاش بين المتحاورين الثلاثة، ليس هو "وجود الله" (لأنهم جميعاً يتفقون على وجوده) بل هو معرفة طبيعة الله وخصائصه. ويتفق "ديميا وفيلو" معاً على أن الإنسان يستحيل عليه أن يعرف عن تلك الطبيعة الإلهية شيئاً مستعيناً بالعقل وحده .

كليانتس يرى أن الإنسان فى وسعه – مستعيناً بعقله – أن يقيس طبيعة الله على طبيعة الإنسان لما بين الاثنين من تشابه (وهذا ما يُعرف بدليل المماثلة)[15].

ولكن هل يجوز أن نحكم على الله بما نحكم به على الإنسان ؟ يحاول فيلو المتشكك أن يهدم حجة كليانتس ويرى أن العالم يشبه الكائن العضوى فى تكامل أعضائه وفى نمائه، وذلك مثل الشجرة التى حالما تسقط بذورها فى الحقول تنتج أشجار أخرى (وهو ما يُعرف بالدليل الكسمولوجى أى الكونى) ويظل الحوار قائماً حول إمكان معرفة الإنسان لطبيعة الله. ويخرج ديميا من النقاش، ويظل الآخران "فيلو وكليانتس"، وينتهى الحوار بأن مبادئ فيلو المتشكك أرجح صواباً من مبادئ ديميا المؤمن، لكن مبادئ كليانتس أشد صواباً من مبادئ زميليه معاً. فبالعقل – كما يقول كليانتس – يمكن أن نهتدى إلى خصائص الله وصفاته [16].

من هذا كله نستنتج أن فلسفة "هيوم" الخاصة عن الدين وآرائه فى الألوهية، لا تؤدى إلى أى عقيدة دينية تهتم بالطقوس والشعائر، أو إلى إقامة مؤسسة دينية ؛ ذلك لأنه أرجع الدين إلى مشاعر الرجاء والأمل – أى إلى الحالات النفسية الذاتية وهى تتخذ صورة دينية من خلال تفكير الإنسان ومثوله أمام قوة عليا غير مرئية عاقلة [17].

* * * *

مراجع الفصل الثالث من الباب الثالث

(1) د. محمد فتحى الشنيطى، فلسفة هيوم بين الشك والاعتقاد، مكتبة القاهرة الحديثة، 1957، ص4.

(2) نقلاً عن : د. زكى نجيب محمود، ديفيد هيوم، سلسلة نوابغ الفكر الغربى، دار المعارف بمصر، 1958، ص15.

أنظر أيضًا :

Roger Scruton, A Short History of Modern Philosophy, from Descartes to Wittgenstein, Land Second Edition, 1995, p. 97.

(3) د. محمد فتحى الشنيطى، المرجع السابق، ص9.

(4) المرجع السابق، ص10.

(5) د. زكى نجيب محمود، المرجع السابق، ص ص22 – 23.

أنظر أيضًا :

James Collins, A History of Modern European Philosophy, p.404.

(6) David Hume, A Treatise of Human Nature, edited by, L, A, Selby–Bigge M. A. Oxford at the Clarendon press, 1960, p.1.

انظر أيضاً: د. محمود زيدان، نظرية المعرفة عند مفكرى الإسلام وفلاسفة الغرب المعاصرين، دار النهضة العربية، بيروت، 1989، ص40.

(7) James Collins, op. cit., pp. 410 – 11.

(8) D. Hume, op. cit., p. 3.

(9) Ibid, p. 4.

(10) D. Hume, A Treatise of Human Nature, p. 11.

راجع أيضاً: د. زكى نجيب محمود، ديفيد هيوم، ص51.

openkan.com

كذلك:

James Collins, A History of Modern European Philosophy, p. 414.

(11) د. زكى نجيب محمود، المرجع السابق، ص163.

(12) لمزيد من التفصيل انظر:

Hume, Selections, edited by Hendel Charles, Scribner's Sons, New York, 1955, p. 254.

(13) د. زكى نجيب محمود، المرجع السابق، ص164.

قارن كذلك :

Hume , Principal writings on religion , including Dialogues Concerning natural religion and the Natural history of Religion , edited with an introduction by J. C. A , Gaskin , oxford , oxford University Press , 1993 .

(14) انظر: Ayer, A. J., Hume, Oxford University Press, 1980, p. 93.

(15) أيضاً: ريتشارد شاخت، رواد الفلسفة الحديثة، ص240.

(16) Hume, op. cit., p. 285.

(17) د. زكى نجيب محمود، المرجع سالف الذكر، ص166.

(18) جيمس كولينز، الله فى الفلسفة الحديثة، ص179.

* * * *

openkan.com